

تسيير الاستشراق : حالة البلقان*

(نورمان تسيغر)

مراجعة محمد الأرنؤوط

يشير هذا الكتاب من جديد العلاقة بين الاستشراق والسلطة السياسية، وبالتحديد توظيف الاستشراق أو استعداد الاستشراق لخدمة السلطة القائمة في تنفيذ سياسات معينة. وطالما أن الأمر يتعلق بالاستشراق فالسياسة هنا لها علاقة بـ «الآخر» (العرب والمسلمون) الذي يشكل «تهديداً» لـ «المركز». ومع أن هذه العلاقة بين الاستشراق والسلطة عريت بشكل واضح في كتاب إدوار سعيد «الاستشراق»، الذي اعتبر صدوره في 1978 حداً فاصلاً يؤرخ به (ما قبل وما بعد)، إلا أن هذا الكتاب بالذات يشير المزيد من الأسئلة والهواجس. لقد كان كتاب إدوارد سعيد قد ترك صداه أيضاً في يوغسلافيا، حيث كان الاستشراق يسعى إلى تقديم نموذج مختلف عما هو موجود في أوروبا الغربية، ولكن لم يكن يتوقع أحد أن يأتي يوم يقدم فيه الاستشراق اليوغسلافي نفسه نموذجاً يؤكد أكثر ما ورد في كتاب إ. سعيد «الاستشراق». وهكذا عندما بدا أن «صدمة» كتاب إ. سعيد بدأت تحيي الآمال في تجاوز الاستشراق القديم وتطرح الحديث عن الاستشراق الجديد وما بعد الاستشراق، يأتي هذا الكتاب ليعيدنا إلى ما قبل «الاستشراق».

(*) نورمان تسيغر، دور المستشرقين الصرب في تبرير إفناء المسلمين في البلقان، سرايفو

مؤلف هذا الكتاب د. نورمان تسيغر، المستشرق الأمريكي/الباحث في شؤون البلقان، ولد في مجتمع يوغسلافي/إيطالي، في مدينة تريستا في 1948، ودرس في جامعة كامبردج وأعد أطروحة الدكتوراة عن «التاريخ الاجتماعي لفاس». عمل في البداية محللاً سياسياً/عسكرياً في وزارة الدفاع الأمريكية ثم توجه للتدريس حيث يعمل الآن أستاذاً للأمن القومي في الأكاديمية البحرية الأمريكية. وبالإضافة إلى التدريس فهو باحث مشارك في معهد الدراسات البلقانية في واشنطن وباحث مشارك في برنامج القانون الدولي والسياسة الخارجية. اشتهر بمقالاته ودراساته عن التطورات السياسية في يوغسلافيا السابقة التي أدت إلى انهيارها، وخاصة عن الحرب في البوسنة ومآسيها. وفي هذا الإطار لا بد من ذكر كتابه «الإفناء الجماعي في البوسنة - سياسة التطهير العرقي» (1998)، الذي خصصه للظروف التي أدت إلى انتهاج الصرب مثل هذه السياسة في البوسنة. وفي هذا الكتاب، كما في الكتاب الجديد الذي بين أيدينا، يتميز تسيغر بسعة اطلاعه وكثرة مصادره الأصلية (في لغات يوغسلافيا السابقة) التي سمحت له أن يقدم صورة أصيلة غير مسبقة عن الأوضاع هناك، وقد أحسن الناشر صنعاً في نشره باللغتين البوسنوية والإنجليزية.

في مقدمة الكتاب يشير المؤلف إلى أن المسلمين في البوسنة هم ضحية «جنوسيد» (إفناء جماعي منظم) جاء نتيجة لانفلات الأديولوجية القومية الصربية التي استفادت من «الاستشراق» الذي عراه إ. سعيد في كتابه، وبالتحديد ذلك القائم على الفصل بين «نحن» و«هم» (ص 15). وطالما أن الـ «هم» كانوا مسلمين في هذه الحالة فقد كان دور الاستشراق الصربي مهماً جداً لأن الأديولوجية القومية الصربية ما كانت لتستطيع أن تقوم بما قامت به دون مساعدة المستشرقين في التحضير والتبرير لما حدث في البوسنة نظراً لأن هؤلاء كانوا يقدمون إلى الرأي العام باعتبارهم «الخبراء» الذين يمثلون المرجعية العلمية في هذا المجال (الإسلام). ولكن هذا الدور لم يكن يقتصر على البوسنة فقط وإنما امتدّ ليشمل المناطق الأخرى كالسنجق وكوسوفو (ص 16).

في المبحث الثاني «الاستشراق والقومية - نمو التداخل» يرى المؤلف أن تسييس الاستشراق الصربي قد حدث في الثمانينات مع صعود الموجة القومية الصربية التي أمسكت بالسلطة بعد نشر «مذكرة» الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون (1986) وصعود نجم سلوبودان ميلوشيفيتش في بلغراد/صربيا (1987). فقد انطلقت وسائل الإعلام الصربية القوية، التي أصبحت في خدمة السلطة الجديدة، في حملاتها ضد «الآخرين» التي شارك فيها الأكاديميون من مختلف التخصصات. وحينما كان الأمر يتعلق بالمسلمين ضمن «الآخرين» فقد كان الدور متروكاً بطبيعة الحال للأكاديميين/المستشرقين الصرب (ص 20 - 21).

في المبحث الثالث والأهم «إعداد الطريق نحو الإفناء الجماعي» يتناول المؤلف بالتفصيل تشريح الحملة التي قادها المستشرقون الصرب طيلة الثمانينات وبداية التسعينات لشحن الرأي العام الصربي ضد المسلمين في صربيا والبوسنة وكل يوغسلافيا. ولا شك أن هذا أهم «إنجاز» يذكر للاستشراق الصربي الذي قام بمساعدة السلطة في «غسيل دماغ جماعي» للرأي العام الصربي لتحويل الصرب من الانفتاح على المسلمين أيام تيتو/عدم الانحياز إلى الانغلاق على الذات والاستعداد للبطش بالآخرين. وفي هذا الإطار يحلل المؤلف عناصر هذه الحملة التي قادها كبار المستشرقين في صربيا (ألكسندر بوبوفيتش، داركو تاناسكوفيتش وميرلوب يفتيتش وغيرهم)، والتي هدفت إلى تنميط الإسلام والمسلمين بشكل منفر ينغرس في النفوس ويجعل هذه النفوس مشحونة ومستعدة لعمل أي شيء ضد «الآخر».

وهكذا، في هذه الحملة، كان التركيز على العنصر الأول «المسلمون شيء آخر عنا»، الذي له تقاليد في الاستشراق التقليدي كما يقول المؤلف بالاستناد إلى ما نشره عزيز العظمة حول هذا الموضوع (ص 26). وفي هذا الإطار تمّ الإلحاح على فكرة «أن المسلمين ينتمون إلى ديانة/ثقافة غريبة»، وبالاستناد إلى ذلك أصبح في الإمكان استخلاص أن «المسلمين لا يمكن أن يكون لهم مكان في أوروبا». وهكذا يستشهد هذا المؤلف بما كان يروجه المستشرق الصربي المعروف ألكسندر بوبوفيتش (الأستاذ في جامعة السوربون

الآن)، الذي يؤكد أن الإسلام «نظام شمولي، وحتى أن شموليته لا يمكن لأي روح غربية أن تفهمها أو تتخيلها» (ص 27). وفي هذا السياق تنتقد نادا تودوروف تمسك مسلمي البوسنة بثقافته الإسلامية «التي لا يوجد ما يجمعها مع الحضارة الأوروبية» (ص 28).

أما العنصر الثاني في هذه الحملة فكان يركز على أن «الإسلام من بواقي الماضي». ويرى المؤلف هنا أن المستشرقين الصرب تابعوا ما روجّه الاستشراق في العهد الاستعماري، إذ روجوا أن الإسلام «دين رجعي» ولذلك يشكل «خطراً» على «الحضارة الأوروبية». وهكذا تذكر نادا تودوروف أن «المرأة في التعاليم الإسلامية لا روح لها وليس لها سوى أن تخدم حاجات الرجال» (ص 29). ونظراً لأن الإسلام كما يروجه المستشرق ميرلوب يفتيش «ليس لديه رحمة تجاه كل ما هو غير مسلم» يصبح في إمكان المستشرق الآخر داركو تاناسكوفيتش أن يستخلص أن «الكثير (في صربيا) ينظرون (إلى الإسلام) كدين غريب وعدائي» (ص 31).

ويركز العنصر الثالث في هذه الحملة على أن «الإسلام دين العنف». وهكذا يقدم يفتيش صورة مرعبة عن الرئيس الجديد للبوسنة علي عزت بغوفيتش «الأصولي الإسلامي» إذ أنه يؤكد أن «عزت بغوفيتش لا يريد السلام ولا يمكن أن يقبل به لأنه بهذا يخرج عن إسلامه» (ص 31). ويصل هذا التنميط السلبي للمسلمين إلى حد أن نادا تودوروف تذهب إلى أن المسلمين يألفون العنف بقراءتهم لـ «ألف ليلة وليلة» خلال مراهقتهم. فهي توهم القراء أن كل المسلمين تقريباً يقرأون هذا الكتاب الذي يعلمهم كيف يعذبون ويقتلون المسيحيين (ص 32).

أما العنصر الرابع في هذه الحملة فيركز على أن «المسلمين خونة». فمع هذا العنصر أخذ المستشرقون يروجون لفكرة أن المسلمين قد «خانوا» البوسنة باعتراقهم الإسلام قبل 400 - 500 سنة، لأنهم بهذا انفصلوا عن «أخوتهم» الصرب الذين بقوا مخلصين للمسيحية. وفي هذا المجال كان المستشرق يفتيش هو الأشهر، إذ كان يركز على أن «أولئك الذين قبلوا

الإسلام خانوا فكرة البوسنة... إذ أنهم أقبلوا الفاتحين كأخوة لهم، أي أن أيديهم ملوثة أيضاً بدماء السكان غير المسلمين في البوسنة»، ويروج أن المسلمين في البوسنة «ساهموا بدورهم في أن يستمر العثمانيون طويلاً في حكم البوسنة المسيحية» (ص 32).

ومع هذه العناصر الأربعة الرئيسية للحملة الجديدة ضد المسلمين ينتقل المؤلف إلى المبحث الرابع «المسلمون تهديد وجودي للجميع»، حيث يوضح كيف أن المستشرقين الصرب زجّوا بكل بلاغتهم ليروجوا أن الإسلام هو الخطر الذي يهدّد الجميع: صربيا ويوغسلافيا وأوروبا! وفي هذا الإطار يعتبر يفتيتش أن «صربيا بكفاحها حرّرت هذا الجزء من البلقان من (دولة) الخلافة ولذلك ليس من المستغرب أن يكون لدى أتباع الأصولية الإسلامية هذا القدر من العداة للصرب» (ص 40). ولا يقتصر الأمر على صربيا فقط بل أن يفتيتش يعتبر الإسلام «أهم خطر يهدد يوغسلافيا» (ص 39). ويوسع تاناسكوفيتش دائرة التهديد/الخطر إذ يعتبر أن «الجهاد الاقتصادي والدبلوماسي والديموغرافي» لا يضع في هدفه البلقان وحسب وإنما أوروبا أيضاً (ص 44). وضمن هذا المفهوم «الديموغرافي» للجهاد يؤكد يفتيتش بدوره أن «معدل الازدياد السكاني العالي» إنما هو أحد وسائل الإسلام التي يهدد بها يوغسلافيا، وأن المسلمين حتى إذا كانوا أقلية (كما في صربيا) فإنهم يمكن أن يشكلوا خطراً لـ «أسلمة صربيا» (ص 46).

وفي هذا السياق يرى المؤلف بأن المستشرقين الصرب أعطوا أنفسهم دوراً يسميه «مهمة التحذير» سواء للسلطات في يوغسلافيا أو حتى في أوروبا الغربية. فيفتيتش يذكر في إشارة مهمة أنه يأمل في أن تكون تحذيراته «واضحة لأعلى المسؤولين في البلاد». وفي هذا الإطار يحذر يفتيتش أن «أسلمة صربيا هي الخطوة الأولى للتوسع في أوروبا» (ص 48)، ويحذر تاناسكوفيتش الأمريكيين من أن الدول الإسلامية التي تساعد البوسنة «إنما لها أهداف بعيدة المدى... إذ إنها لا تساعد المسلمين في البوسنة بقدر ما تنظم لنفسها مواقع في أوروبا لأنشطتها القادمة» (ص 49). وضمن هذه «الرسالة التحذيرية» التي أعطوها لأنفسهم وصل الأمر كما يقول المؤلف إلى أن

يتصدى تاناسكوفيتش لوزير الخارجية الإيطالي جاني دي ميكليس في 1992 لكي يثبت له أن الإسلام في البلقان أخطر مما يعتقد. فالوزير الإيطالي كان قد أشاد باعتدال الإسلام في تركيا والبلقان، بالمقارنة مع إيران، إلا أن تاناسكوفيتش اعتبر ما قاله الوزير إنما يدل على «نقص المنظور التاريخي وحتى عن السداجة» وحذر من أن البلقان الذي يضم أقدم الحضارات الأوروبية «يتحول إلى مدخل متشرق orientalized يهدد أوروبا الجديدة» (ص 50).

وبالاستناد إلى هذا كله، وبعد أن قام المستشرقون الصرب بشحن مواطنيهم ضد الإسلام والمسلمين في هذه الحملة بالاعتماد على العناصر المذكورة، ينطلق المؤلف في المبحث الخامس «الانتقال من التحليل والتبرير إلى الدفاع عن الإفناء الذاتي» من أنه لا يعود من المستغرب أن المستشرقين الصرب لم ينتقدوا أبداً التطهير العرقي الذي مورس ضد المسلمين في البوسنة، ولو بكلمات عامة على الأقل (ص 55). ولبت الأمر اقتصر على الصمت، بل إنه تحول لدى البعض إلى تبرير هذا التطهير العرقي. وهكذا يهون يفتيش مما حصل على البوسنة، بل يعتبر أن أهم انتهاكات لحقوق الإنسان في العالم إنما تحدث في البلاد الإسلامية (ص 56).

وفي هذا السياق يروج يفتيش (حين كانت تطرح مبادرات السلام في البوسنة) أنه «لا يوجد سلام مع الأصوليين المسلمين ولا يمكن أن يوجد»، ولذلك فإن «السلام مع علي (عزت بغوفيتش) هو مجرد وهم» (ص 57).

في المبحث الأخير «استخلاصات» ينتهي المؤلف إلى أن دور المستشرقين الصرب كان أكبر بكثير من عددهم الصغير (4 - 5) لأن وسائل الإعلام المؤثرة كانت تقدمهم للرأي العام الصربي باعتبارهم «خبراء» صربيا في شؤون الإسلام والمسلمين، ولذلك فإن القراء/المشاهدين كانوا يأخذون على محمل الجد ما يتلقونه من آرائهم حول جيرانهم المسلمين (ص 60). ومما سمح لهؤلاء المستشرقين الصرب أن يلعبوا مثل هذا الدور الكبير في «غسل دماغ» الرأي العام الصربي، كما يقول المؤلف، أن المؤسسات المهمة

في صربيا (الأحزاب السياسية والكنيسة الصربية الأرثوذكسية وغيرها) «لم تتخذ موقفاً نقدياً من هذه الحملة المعادية للإسلام» (ص 61). ويرى المؤلف أخيراً أن المستشرقين الصرب سيبقى لهم دور مؤثر في صربيا فيما يتعلق بالحملة المستمرة ضد الإسلام، وسيحاولون نقل «المعركة» إلى مناطق أخرى، وبالتحديد إلى كوسوفو (ص 64).

وفي النهاية لا بد من القول إن كتاب تسيغر على الرغم من أهميته في هذا المجال (تسييس الاستشراق) إلا أنه لا بد من التوقف عند بعض الملاحظات. فالكتاب في الأساس دراسة واسعة نشرت في الإنجليزية في 1994 بعنوان «المستشرقون الصرب والإسلام: التبرير الثقافي للإفناء الجماعي» وهو لا يزال العنوان الأنسب لهذا الكتاب. وربما يكون العنوان الحالي من الناشر (معهد البحث عن الجرائم ضد الإنسانية والقانون الدولي والمركز الثقافي البوسنوي) لأن المؤلف لم يضيف إلى الكتاب ما يبرر العنوان الجديد، وبالتحديد تعميم الوضع على كل البلقان. ومن ناحية أخرى كان لا بد في الكتاب، أو في العرض على الأقل، توضيح ملابسات التمايز/الافتراق في الاستشراق اليوغسلافي. فحتى وفاة تيتو (1980) كان الاستشراق بطابع «يوغسلافي»، بينما بدأ التمايز/الافتراق على أسس قومية/سياسية خلال الثمانينات، وخاصة مع تصاعد الموجة القومية الصربية (صربيا الكبرى) بعد وصول ميلوشيفيتش إلى الحكم (1987). ولذلك يلاحظ أن كل استشهادات المؤلف تقريباً من كتابات المستشرقين الصرب إنما تعود إلى تلك الفترة 1987 - 1994. ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الكتاب يركز على كتابات ثلاثة من المستشرقين الصرب (ألكسندر بوبوفيتش وداركو تاناسكوفيتش وميرولوب يفتيتش) الذين تميزوا فعلاً بوفرة كتاباتهم في تلك الفترة، ولكن هذا «الدور» لا يشمل كل المستشرقين الصرب (على الرغم من قلة عددهم في إطار الاستشراق اليوغسلافي) إذ أن بعضهم آثر الصمت على الأقل في مثل هذه الظروف الصعبة مثل راده بوجوفيتش وفويسلاف سيميتش.

